في منهجية قراءة الحديث: صيانة الصحيح من شارد الضعيف

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ}.

الفكرة المركزية

لقد فطن علم الحديث إلى أنه قد يكون لثقافة البيئة وخصائص الراوي تأثير على الحديث. وتشير هذه الرسالة إلى مسالك التسرّب ومواضع اللين، وتنبّه إلى أنه أمرين مترابطين: الأول أنه يمكن عزو المعاني الناشزة في الأحاديث الضعيفة –من غير المراسيل– إلى خصائص الراوي وبيئته، وأنه حرّي بأن لا تتسرّب تلك المعاني الغريبة إلى تأويل أحاديثٍ صحيحة، الثاني، أن بعض الأحاديث التي فيها ضعف قد يكون مصدره خصائص الراوي وثقافة البيئة، رغم أن أصل خطاب الحديث هو ممّا أراده النبي ﷺ. وقد اشتهرت في قبول الأحاديث التي فيها سندها ليّنٌ أو علّةٌ قاعدةُ "وأن يكون من كلام النبوّة".

الحديث الموضوع هو المختلق المصنوع، ولقد بيّن العلماء أن ممّا يحمل على الوضع الهوى السياسي والعصبية القومية والخلافات الكلامية ودسائس الزنادقة وأهواء القصّاص وشطحات جهلة الصالحين. صفة الحديث الموضوع ظاهرة، وتصادم معانيه ما هو مقرّر في الشريعة، ويتكشّف عوار الحديث الموضوع في متنه قبل سنده. ليس الهمّ هنا الحديث الموضوع، وإنما جرت الإشارة إليه من أجل المفارقة. أما الحديث الضعيف فمن أوسع أبواب تسلّل العلل إليه – بغضّ النّظر عن العدالة والضبط– ثقافة بيئة الراوي وصيغته الذهنية. ولقد تنبّه علم الحديث لهذا الأمر حيث أُسدي لما روي عن أكابر الصحابة وصفوة التابعين أهمية خاصّة.

أثر البيئة

تأثير البيئية أمرٌ مقرّر، حيث يترعّرع الإنسان في هيكلية اجتماعٍ جُعلت شعوباً وقبائل تحفّها ثقافاتٌ وأنواع مختلفة من العُرف. ولما كان الإنسان كائنٌ اجتماعيٌ بامتياز، تتبلور صيغ تفكيره وتتخلّق ضمن سيرةٍ ذاتية ومناخٍ ثقافي ما. ولقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى أثر النشأة والتكوين المبكّر، مثل قوله تعالى {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}، وتنبّهنا الآية إلى أثر البيئة النقية التي يمكن أن يترعرع فيها حبّ الانقطاع إلى الله {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}، وإلى أثر البيئة على الاستقامة {مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً}، والبيئة تفرض حُجباً تحول دون رؤية الحقّ أو تؤخّر ذلك

{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين}، وهناك البيئة القصورية التي لا تستحي من غيّيها {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَة}، وهناك البلدات التي تفتخر كِبْراً وتدّعي لنفسها الأحقية {علىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم}، وهناك بيئات الفساد الخلقي {وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}، وهناك المجموعات التي تدافع عن الحقّ {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}، وثمة بيئةٌ تستنكر فعل الخيرات وتجور على المسكين {حتّىٰ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا}، وثمة بيئة قحطٍ فكري {وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا}، وهناك بيئة تدعو إلىٰ احتكار نعم الله {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، وثمة بيئات الترف الكارهة للاستقامة {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون}، وهناك بيئة يُعميها بريق الزينة {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ}، وهناك البيئة القاهرة المستكبرة {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ}. فهذه الآيات تدلّ على سياقات اجتماعيةٍ يتولّد فيها أو عنها الفعل الإنساني الظالم الباغي، أو الصالح الأوّاب.

ويتجلّىٰ أثر البيئة على الناس في خمسة صُعد: (1) الاعتياد تجاه السلوكات والمشاهدات، (2) العرف الشائع الذي يشفع المدخلاتِ بعواطف وانطباعات، (3) التجارب التاريخية السابقة التي تشابه أو تنافر المشاهدات، (4) المفاهيم التي تصنِّف الأعمال والأقوال، (5) الأطر التفسيرية لسياق الأعمال والأقوال. بمعنىٰ أن الاعتياد السادر يؤثِّر علىٰ حساسية استقبال المدخلات السمعية والملاحظات البصرية، وبمعنىٰ أن العرف السائد يمنح أوعية أخلاقية لتقبُّل القول والفعل المشاهَد، وبمعنىٰ أن الخبرة التاريخية تقوم باحتضانٍ وجدانيٍ للمُدخلات، وبمعنىٰ أن المفاهيم المكتنزة تصنِّف المدخلات وفق حجُرٍ إدراكية، وبمعنىٰ أن الأطر التفسيرية تتحرّىٰ كُنه المدخلات. وقد يجري ذلك بعيداً عن القصد الواعي للإنسان الفاعل. ومثال الكوفة حالٌ معروفٌ لدىٰ المحدّثين، حيث يخرج إليها "الحديث شبراً فيرجع ذراعاً".

وعلىٰ الصعيد الفردي تؤثّر في مواقف المرء خمسة عناصر: (1) السمات الشخصية الغالبة، (2) وطبيعة الاستجابة للحال في لحظةٍ معيّنة، (3) وخبرة المرء بالبيئة، (4) ودراية المرء بالموضوع، (5) والحمولات العاطفية التي تشعّ علىٰ الموقف والمقال. بمعنىٰ أنّ السمات الشخصية تتفاعل مع المدخلات غضباً أو رضىٰ أو استحساناً أو استقباحاً، وبمعنىٰ أنّ لحظة الاعتراك مع المدخلات لها علاقة بانعكاسات المرء نفسه، وبمعنىٰ أنّ الخبرة بالبيئة تؤثِّر لحظياً علىٰ المدخلات من ناحية الشواهد السياقية، وبمعنىٰ أنّ الدراية بالموضوع تؤثّر علىٰ كثافة المدخلات التي يلتقطها الفرد، وبمعنىٰ أنه تتفاوت الحمولات العاطفية المتعلّقة بالأمر فتحتفُّ بالمدخلات التي يستنكهها المرء. ويمكننا أن نعبِّر عن هذا بصيغٍ معرفيةٍ مكتنزةٍ عند الأفراد تُستدعىٰ في الأحوال المختلفة. ويشهد لذلك أثر الخلفيات الثقافية لكعب الأحبار و وهب بن منبّه و تميم الداري وابن جُريج.

وحين نأخذ هذين البعدين بالاعتبار (لِحاف البيئة و تألّق الفرد)، تنكشف لنا مساحاتٌ للأطر الاجتماعية/النفسية للفرد العاقلِ المستشعِر الفاعلِ، مساحاتٌ تؤثّر في تلقّي الخبر وروايته وتسييقه. وممّا يعنيه هذا أنه لا يمكن تخيُّل ناقلٍ لخبرٍ وكأن الناقل آلة صفوان لا تؤثّر على المضمون. إن الراوي نفسه يتحرّك ضمن أطرٍ اجتماعية تؤثّر على الفهم، والراوي نفسه يقوم بمعالجة الخبر قبل الرواية من خلال تأطيره وتسكينه وفق صيغة معرفية مستبطنة. ولا يقتصر هذا على الرواة فحسب؛ بل ينطبق أيضاً على علماء الحديث الذين يقومون بعمليات الترجيح ويجتهدون في تحرّي درجات الصحّة وأوجه الضعف، وينطبق على محاولات فهم مراد الحديث وطيف معانيه.

وعلاوة على ما سبق، يتعلّق كلٌ من هذين البعدين (الفرد والبيئة) بالأفق المعرفي السائد والثقافة العامّة للحقبة الزمنية، وهذا مبحث طويل. ومن أبعاد الأفق المعرفي إدراك عالمية الرسالة وعدم انحصارها في زمان أو بيئة مخصوصة، وكمونها في خطاب أعلى الناس معرفة علاوةً على وسطيّهم وعامّتهم.

ولعلّ مفاد ما تقدَّم يشير إليه الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيةً قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (رواه البخاري في كتاب العلم باب فضل من علم وعلّم، ومسلم في كتاب الفضائل باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ).

فهم رسالة الحديث

ينبغي في هذا المقام استذكار أن الحديث الشريف روي بالمعنى. فخلافاً للقرآن الذي حُفظ بحرفه ولفظه (ثم رسمه)، يمكن لألفاظ الحديث الشريف أن يطرأ عليها الإبدال، وهذا يتعلّق بضبط الراوي كما هو معروف. وحيث أنّ توافر الضبط –حُكماً– أقلُّ طروءاً في الأحاديث الأدنى صحّة، تتأكّد الفكرة المحورية التي يجري تعقبّها في هذا البحث، وهي أنّ المنظور البيئي للراوي وصيغته المعرفية يمكن أن تؤثّر في متن الحديث الذي فيه ضعف. وإذا سلّمنا بالنقاط المذكورة أعلاه عن عريكة الراوي وتأثير البيئة، يظهر لنا أنّ الحديث الضعيف قد يحكي –من ناحية متنه– عن حالٍ شخصيٍ ثقافيٍ تسرَّب إلى النصّ (ضعفاً بشرياً وليس تربّصاً)، حالٍ يفرض نفسه على الواقع المتّصف بعموم البلاء العُرفي؛ ممّا قد يضيف للرواية دخن فيجعل الرواية غير مطابقةٍ لصفاء نهج الشريعة.

ما ذُكر أعلاه يؤثّر في نقل الأحاديث عامّة وإن كانت المناقشة ستقتصر على ما دون الصحيح من الحسن والضعيف، وبعد استثناء المرسل من الضعيف. وسبب استثناء المرسل (وخاصّة ما أتى من ثقاتهم) أنه يمثّل حالة جادّة في الفهم والتنزيل، ولا يقتصر الأمر على محض النقل.

ومن ناحية تأثير البيئة وعريكة الراوي، يبدو أن ثمة فرقاً مهمّاً بين الضعيف والحسن. فمن الضعيف ما ناتجه سالبٌ يدفع باتجاه ثقافةٍ تستدخل مفاهيم غريبة عن اعتدال الشريعة. أما الحديث الحسن فقد يحكي عن حالٍ ثقافيٍ يجاهد في الامتثال للشريعة. ويمكن تقسيم النازع الثقافي وراء الحديث الحسن إلى قسمين: الحثّ على أخلاقٍ وسلوكٍ طيّبٍ يُشعر بنبضة الإيمان ورغبة الطاعة، والحثّ على مسلكٍ معيشيٍّ محلّيٍ حاول الاستجابة لمطلب الإسلام. وتتراوح عملية تمثّل التوجيه النبوي في سياق نقله في كلا القسمين بين حدّين: حدُّ التوافق مع الهدي النبويّ موافقةً ارتاحت لها ثقافةُ المحلّ في لحظةٍ زمانيةٍ مكانية، وحدُّ التقصير في إصابة مخّ التوجيه النبويّ برغم الالتزام بمطلبه الظاهر.

ولقد اعتنى منهج الأصوليين –ولو بشكل غير مباشر– بحال الرواة من ناحية رسوخ علمهم، في حين أن أهل الحديث يعيدون الأمر إلى ضبط الرواة حينما تلوح لهم علّةٌ في الحديث. فهل يمكن القول بأنه تمّ تطوير قواعد عامّة لحال الرواة، أم أن الأمر بقي في حدود انتباه الفقيه إلى خصوصيات أفراد الأحاديث؟ إنّ عدم استيفاء الوجه النوعي لحال الراوي وبيئته مضرٌّ بفهم فحوى الحديث ولبّ معناه. غير أن الأخطر في الأمر أنّه حين تتكاثر الإشارات المتحدِّرة من الأحاديث الضعيفة يمكن أن تتسرَّب هذه الإشارات إلى فهم الحديث الصحيح، وخاصة عبر الزيادات. وأيضاً يُمكن للحديث الحسن –عند الذهول عن الاعتبارات المذكورة أعلاه– أن يشوِّش صفاء رسالة الحديث الصحيح، تحديداً من ناحية عالميّتها وتجاوز عموم لفظ الحديث لخصوص سببه الذي تمّ تقديره.

وأخيراً، لا تدعو المنهجية المقترحة إلى تعقّب المعاني الإشكالية المتسرِّبة إلى الحديث الضعيف فحسب، وإنما ملاحظة المعاني المقبولة أيضاً، فكم في محتوى الحديث الذي جرى قبوله رغم لينٍ في سنده من إشاراتٍ إلى حكمة اجتماعية مسلِمةٍ (ثقافياً) وافقت معنىً إسلامياً (نصّياً). لكن شتّان بين حكمةٍ استلهمت الهدي النبوي، وبين توجيهٍ نبويٍ مسدَّدٍ بالوحي. بمعنى أن قبول الرسالة التربوية لحديثٍ فيه لينٌ أمرٌ لا إشكال فيه ما دام ينسجم مع روح الشريعة ومقاصدها (ويكون للحديث ما يعضده حُكماً)، في حين أنّ السماح لألفاظ الحديث المعلول بتقرير المعاني استقلالاً أمرٌ آخر. ولا يفوت القارئ أنه يمكن لمباحث العلّة والشذوذ والنكارة في علم الحديث

الاعتناء بمسألة المعاني، وهناك في ذلك اهتمام مقصور على السند وآخر يضمُّ المتن. كما أن مقاييس الضبط تختصّ فيما تمّت مناقشته حول الفرد العاقل المستشعر الفاعل.

مواضع للتنقيح في الأحاديث غير قوية السند

يمكن تصوّر مواضيع خاصّة في الأحاديث غير القويّة يكبُر فيها احتمال تسرّب مؤثِّرات خاصّة، واحتمال غلبة أطر فهمٍ شائعة، ويتعاظم وزن المؤثّرات في حال اصطباغ الرواة بثقافةٍ غير عربية:

1. المواضيع المتعلّقة بالإنابة والقرب إلى الله وتزكية النفس أحاديثُها أكثر تعرّضاً للزيادات والرفع.
2. المواضيع المتعلّقة بالثواب أحاديثُها أكثر تعرّضاً للمبالغات (ولا سيما في الزيادات).
3. المواضيع في مسائل فقهية أحاديثُها أكثر تعرّضاً للإدراج (بدافعٍ التوضيح والشرح والتقعيد).
4. المواضيع المتعلّقة بالماضي أحاديثُها أكثر تعرّضاً للتأثّر بالإسرائيليات.
5. المواضيع المتعلّقة بالغيب أحاديثُها أكثر تعرّضاً للتأثّر بالأساطير الشائعة عند القوم قبل إسلامهم.
6. المواضيع المتعلّقة بالحُكم أحاديثُها أكثر تعرُّضاً للتأثّر بالميول السياسية القائمة وخلفياتها المذهبية.
7. المواضيع المتعلّقة بالمستقبل أحاديثُها أكثر تعرّضاً للمخاوف.
8. المواضع المتعلّقة بصروف الحياة أحاديثُها أكثر تعرّضاً لأن تتسرَّب إليها الأمثال.
9. المواضيع المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية ومسائل الذكر والأنثى أحاديثُها أكثر تعرّضاً للتأثّر بأعراف البيئة.
10. المواضيع المتعلّقة بالمال أحاديثُها أكثر تعرّضاً للتأثّر بطرفي حال المجتمع من العوز أو الرغد.
11. المواضيع المتعلّقة بالنفع العام أحاديثُها أقرب أن تتسرَّب الحِكم إلى أحاديثها.
12. المواضيع المتعلّقة بصحّة البدن أحاديثُها أكثر تعرُّضاً لتسرُّب طبٍّ ما عُرف في ذلك الزمان.

ليست هذه النقاط غير معروفة، غير أن استصحابها ابتداءً وإعمالها في التفكّر في الحديث أمر مهمّ.

الحديث الضعيف وفضائل الأعمال

فكرة الأخذ بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال فكرةٌ خطيرة. ففضائل الأعمال هي أوسع حيِّز تتفتّق فيه معاني الإيمان، ومسائل فضائل الأعمال هي التي يعترك بها المؤمن في حياته اليومية؛ وتصرّفات المرء في فضاء الفضائل يرتشّح منها إلى النفس نسقٌ شعوريّ، وتتشكّل وفقها صيغٌ للتفكير. ويُنشئ كلٌّ من هذا النسق وتلك الصيغة عالَماً لمسيرة التديّن وحقيقته الواقعة. وحين تتسرّب معاني الحديث الضعيف إلى الحياة المسلمة، تُفسد توازن النسق الإسلامي في الأنفس والأذهان. بل يمكن لفكرة فضائل الأعمال أن تشكّل كوّةً لدخول آثار الأديان الأخرى، فقد يكون في هذه الآثار توصيات أخلاقية ومعاني قد تبدو طيّبة، لكن تفتقد التوازن الذي أتت به الرسالة الخاتمة.

مسالك للضعف وآثار تسرّبه

لا تخفى خطورة الموضوع الذي نحن بصدده، ولم يغفل علم الحديث عن التحدّيات التي نناقشها؛ بل أعناها اهتماماً متفاوتاً. وما يلي تذكير بأوجه جديرة بمزيد من الاهتمام تتعلَّق بالرّواية والنقل.

أولاً: بقدر ما تطول سلسلة الرواية يكبُر قدر الارتياب (بالمفهوم الرياضي) من ناحيتَي تأثير بيئة النقل وخصال الناقل، وتكمن هنا ميّزة الحديث العالي.

ثانياً: عندما ترد رواياتٌ متعدِّدة ليست من رتبة الصحيح، هناك خيار جمعها إلى بعضها البعض باعتبار أن تعدّد الروايات يقوّي المعنى، وهناك خيار الاكتفاء بالحدّ الأدنى المشترك بين هذه الأحاديث. والحدّ الأدنى هو الأقرب أن يكون ممّا أراده النبيّ ﷺ، والزيادات أقرب أن تكون عرضةً لتسرّبٍ غير واعٍ بحسب خصال الرواة وبيئاتهم (بغض النّظر عن كون ما رافق الحديث سليماً أم لا).

ثالثاً: تؤكّد كثرة الطرق حضور الاهتمام الجمعي بالمسألة، فينبغي أن يدعو هذا الاهتمام إلى إحكام الجهد لفحص دروب النقل وتنقيح المعنى من أجل الاحتراز من دخيلٍ شاع تناقله. وتعدّد الطرق مع اختلاف البقاع –وخاصّة إن كانت متباعدة غير متواصلة– يزيد في الاطمئنان إلى الروايات.

رابعاً: هناك تفاعلٌ بين توافر العدالة والضبط مع كثرة الطرق. فكثرة طرق حديثٍ رُوي عن عدولٍ وإن لم يشتهروا بالضبط، يغلب أنّ المعنى المشترك لهذه الأحاديث ممّا أراده الرسول ﷺ؛ غير إنه تتصاعد في هذه الحالة أهمية فهم بيئة النقل. أما كثرة الطرق عمَّن عدالتهم مجروحة –ولو

اشتهروا بالضبط– لا يحصل بهذه الطرق الاطمئنان إلى أن المعنى المشترك لهذه الأحاديث هو حقاً ممّا أراده الرسول ﷺ؛ وتتصاعد في هذه الحالة أهمية فهم خصال الناقلين.

خامساً: هناك إشكالٌ في الاحتفاء بحديثٍ معتلٍّ شاهدٍ بسبب وجود رواياتٍ أخرى صحيحة. فالرواية المرجوحة وإن اشتركت في معنى جزئيٍ مع الرواية الصحيحة، ينبغي ألا تؤثّر على رسالة الرواية الصحيحة. بمعنى أنه ينبغي الاحتراز من أن يتأثّر تأويل مراد الحديث الصحيح بما هو أدنى منه. وقد يتمّ ترك الرواية المعلولة من ناحية إثبات الحكم، ولكن قد تتسلّل العلل المعنوية في الرواية الأضعف إلى فهم الحديث الأكثر صحّة وإلى الشروح عليه.

سادساً: العدالة والضبط بعدان متفاعلان ولسيا مستقلان، وتساهل المحدّثين في مسألة العدالة بناءً على حسن الظنّ بالراوي أمرٌ إشكالي برغم فهم الداعي إلى ذلك. إن عدالة الراوي لهي أحرى بالدفع نحو التعبير عن المقصود الأصلي المراد من الحديث، ولو حصل قدرٌ يسير من التصرّف بالألفاظ. وبالمقابل فإن الراوي الأقلَّ عدالةً والأكثر ضبطاً لربما نقل النصّ الحديثي –على الصعيد الواعي– على نحوٍ أسلم من ناحية اللفظ، لكن حال الراوي –على صعيد اللاوعي– أكثر دفعاً للتشويش على الرواية من حيث سياقها ومطلبها.

سابعاً: الرواية عن أصحاب المذاهب التي فيها شذوذ أو بدعة –ما داموا ثقاتاً– أمرٌ إشكاليٌ، ولا يكفي اشتراط عدم دعوتهم إلى مذهبهم. وإن وجه الابتداع وغلاظته له أهمية في قبول الروايات، وإلا لصير إلى ردٍّ أدنى مخالفة للسائد الاجتهادي، لكن مورد الإشكال هو أن لمثل هؤلاء الرواة صيغٌ ذهنيةٌ معرفيةٌ سرت فيها –ضرورةً– الروايةُ ومعانيها واتصفت بها وتلوّنت بلونها.

ثامناً: إنّ ثمة فرقاً كبيراً بين تذوّق معنى حديثٍ معلولٍ بناءً على أن فيه حِسّاً إسلامياً يضيء واقعةً ما في سياقها وزمنها، وبين اتخاذ الحديث –بلفظه المرويّ– توجيهاً خالداً من مبلّغ الرسالة.

اعتبارات منهجيّة عامّة

يفيدنا ما سبق وجاهة التأكيد على أبعادٍ منهجية وخطواتٍ تحليلية لدى الأخذ بالحديث، وتزداد الحاجة إلى ذلك بقدر ابتعاد الحديث عن مراتب الصحّة. وفي علم الحديث في مباحث السلامة من العلل المؤثرة تفصيلات كثيرة تتعلَّق بما يلي:

1. جدارة التفصيل في السياق الظرفي للحديث وانسجام معنى الحديث مع المبادئ الإسلامية العامة في التعامل الظرفي.
2. إعطاء الصدارة لمعنى الحديث الصحيح، وجعله الإطار الذي تُضمّ إليه الأحاديث الأقلّ صحّة، بحيث لا تشوّش على الصحيح الروايات الأقلّ صحّة.

3. الانتباه إلى ما تكاثر وروده في الأحاديث الضعيفة في غياب الصحيحة، فيغلب أن يكون ذلك دلالة على خصالٍ ثقافية محلّية.
4. محاولة حزر الصيغ المعرفية للراوي وسيرته الذاتية ومناخه الاجتماعي. ويتضمّن هذا مكان نشأة الراوي وقبيلته وعشيرته وما اشتهرت به من عاداتٍ وأعراف، مع مقارنة هذه الخلفيات في المرويات غير الصحيحة في موضوعٍ ما بنظائرها في الأحاديث الصحيحة أو الأكثر صحة.
5. توسيع الاهتمام بملاحظة الزيادات والإدراج، من ناحية المعنى وليس فقط من ناحية الثبوت.
6. زيادة الاحتراز عند كثرة الطرق، فهي –من وجه– تزيد احتمال وجود أصلٍ للرواية، ومن وجهٍ آخر تزيد كثرة الطرق من احتمال تسرّب المؤثّرات.
7. التمحيص في سلامة الأخذ بالحديث الحسن، وخاصة في غياب عاضد أقوى، وخاصة الحسن لغيره.
8. الانتباه إلى احتمال تسرّب معاني الأحاديث الضعيفة إلى تأويل الأحاديث المقبولة.
9. إعطاء مزيدٍ من الانتباه إلى الصياغة اللغوية للحديث من ناحية درجة التأكيد على معنى ما، لا مجرّد ورود هذا المعنى. فالمعنى الوارد في الحديث قد يكون أصيلاً مما أراده الرسول ﷺ، لكن درجة التأكيد في الرواية التي فيها لين يمكن أن تكون قد تأثّرت بمؤثّراتٍ خارجية تُفسد توازن الهدي النبويّ.
10. سدّ ثغرة القول بالأخذ بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال.

متعلّقات

إنّ لبّ الفكرة التي نحن بصددها هي في صلب عطاء علوم الحديث وطرق فهمه، وخاصة مباحث النكارة والشذوذ إلى جانب شرط ضبط الراوي. كما أنّ مسائل ردّ الحديث –وخاصة في فريق الأصوليين– لها علاقة وثيقة بموضوع هذه الورقة إلى جانب اختلاف مواقف المحدّثين في ذلك ولا سيما بين المتقدّمين والمتأخّرين.

ويتّصل بهذا الموضوع رجاحة اعتبار طول الصحبة وكثرة المجالسة في مدى اعتمادية أقوال الصحابة. ويمكن التأكيد أنه تمّ الاعتناء بعموم هذا البُعد، وظهر ذلك في اعتماد المراسيل أيضاً.

ولقد مثّلت كتب الطبقات جهداً واعياً في هذا، أما كتب الجرح والتعديل فإنها أتت متأخّرة برغم أن فكرتها شديدة الفائدة. ولا شكّ أن الدافع إلى ذلك كان انتشار الرواية وادعاءها كيفما كان، ولا يستطيع الدارس إلا العجب من أنّ كثيراً من هذه كتب الجرح والتعديل قد فُقد.

وإنّ هناك فسحة لمزيد من التفعيل فيما جادت به مؤلّفات السابقين. فمثلاً، تنبّه المحدّثون إلى أن التعصّب للبلد كان سبباً من أسباب الوضع. ويمكن القول إنّ التعصّب قد لا يصل حدَّ الوضع الذي يقوم به غير عدول، وأنه عدولٍ متوسّطي الضبط يمكن ظهور ميلٍ في اختيار لفظٍ في موضوعٍ معيّن. ويشعر الدارس أنّ ثمة فوائد في كتب الرجال تحتمل مزيداً من الاستفادة من مضامينها.

ويمكن استثمار الكتب التي تعتمد التنظيم وفق النسب في دراسة أعراف العشيرة أو القبيلة، من أجل ملاحظة احتمال تأثيرها على اللفظ المروي للحديث الأقلّ من رتبة الصحيح.

وكتب الطبقات المنتظمة على المدن بين الحجاز والشام والكوفة والبصرة ومصر مفيدةٌ أيضاً. والتنظيم وفق طبقات حقل العلم مفيد أيضاً، حيث يمكن دراسة المشترك بين طبقات القرّاء وطبقات الفقهاء وطبقات النحاة، وطبقات الصوفية.

ويشار إلى أنه تمّت الرواية عن الشيعيّ والخارجيّ والقدريّ والمرجئ إن لم يكن داعيةً لمذهبه، وتمّ في هذا التفريق بين العقائد والأخلاق. ورغم إنصاف هذا من الناحية الإجرائية، إلا أن عدم تأثير المذهب محال. وليس البديل رفض رواياتهم وإنما عدم إغفال احتمال التأثير غير الواعي لخلفيّاتهم على الرواية، وهذا واردٌ في حقّهم كما هو وارد في غيرهم حاشا قمم العدول من الرواة.

ومما يتّصل بموضوع هذه الرسالة ما ذهب إليه بعض العلماء من استصحاب مقامات النبوّة وموقعه ﷺ بين كونه قاضياً أو حاكماً سياسياً أو أمر ذوق فردي. ووفق هذا يمكن إرهاف الحسّ إلى التوجيه الاجتماعي العام والمناصحة النفسية الخاصة التي يحتويها الحديث.

إن رسم البيئة وسمت الراوي لهما علاقة ظاهرة بما قد يحتفّ بالحديث، وينفع تدارس ذلك والتفصيل فيه. وصحيح أنه لم تفُت المسائل أعلاه علم الحديث، وإنما اختلفت المواقف تجاهها اختلافاً كبيراً، ممّا فتح ثغراتٍ في مطلب التعامل مع الأحاديث.

خاتمة

في الصحيح غنيّة عن الضعيف، والصحيح هو الذي ينبغي أن يرسم إطاراً تنتظم داخله معاني الأحاديث الأقلّ ثبوتاً، والحديث الحسن مفتقرٌ حكماً إلى عاضد يعضده. ويحسن استحضار أنه يتناوب التعامل مع الحديث بين حدّين: خوفٌ من فوات شيءٍ من هديه بالتمسّك بأي أثرٍ روي عنه، وتحرّجٌ من التقوّل على النّبي ﷺ بالتساهل في قبول الضعيف. وصحيح أنه لم تفُت الأوجه التي ناقشتها هذه الرسالة علماءنا في تاريخ تراثنا الزاخر، إلا أنه غارت هذه الأوجه في طيّات التقعيد لدى الفقهاء، وغابت في غمرة الحرص على استقصاء كلّ رواية شاردة لدى المحدِّثين.

وحيث أنه تُستخدم –في أيامنا هذه– مسألة بيئة الرواية من أجل الطعن في الحديث، يفيدنا المقترح أعلاه في دعم الحديث وعملية التحقّق. فليس أن كلّ الأحاديث التي ليست قوية اختُرعت من أجل هوىٰ، وليس أي غرابةٍ في اللفظ تعني اختلاق التاريخ للحديث، وإنما أن هناك مسارب للتقريب في اللفظ يحتمل أن أثّرت علىٰ رواية نصوص الأحاديث ولا سيما في زياداتٍ أو إدراجٍ أو اختيار لفظ. ويمكن إرجاع المؤثّرات التي يمكن أن تداخل الرواية إلىٰ: (1) الحرص علىٰ الاستقامة والخوف من التساهل، (2) التعليم والشرح (3) الصياغة علىٰ نحوٍ قاعدة، (4) التبشير أو التخويف من المستقبل، (5) الميل السياسي أو غير السياسي نحو فرقة دون أخرىٰ.

لا مراء أن عملية نقل الحديث عمليةٌ بشريةٌ يعتريها حال النقص، ولذا نبّهت الكثرة الكثيرة من أقوال العلماء –متقدّميهم ومتأخّريهم ومن مختلف المدارس– إلىٰ أن محض صحّة السند غير كافية لقبول الحديث، وذلك نتيجة إدراكها لما يحتفّ بالنقل من ظروف. ونجد في جملة المحصول التراثي أحاديثٌ ضعيفة حادت عن صفاء صبغة الإسلام، ولأسباب عدّة تمَّ السكوت عليها، إلىٰ أن يأتي عالمٌ من الجهابذة فينبّه إلىٰ تمّ الركون إليه. وهناك أحاديث أخرىٰ سليمة المعنىٰ رغم أن في سندها علّة، تمّ استيعابها في عملية الاستدلال؛ ولا حرج في ذلك ما دام استيعاباً ليس علىٰ سبيل التأسيس وإنما علىٰ سبيل تأييد المعاني الكبرىٰ الراسخة.

وإن صيرورة التديّن نفسها هي التي تحتضن –ضرورةً– عملية نقل الحديث وعملية فهمه، ممّا تورث التفاوت في الروايات وتتحدّىٰ الفهوم في إصابة القصد والمراد.

إن من مقتضىٰ الغيرة علىٰ سنة الرسول وتحاشي التقوّل علىٰ النّبي ﷺ أن تتمَّ حراسة معاني الحديث الصحيح من أن تداخلها شوارد الحديث الضعيف. وإنه يمكن النظر إلىٰ وظيفة الحديث الضعيف علىٰ نحوٍ معاكس، ألا وهي كشف معانٍ ناشزة داخلت الثقافة المسلمة وانسلّت فيها، بمعنىٰ رجحان مطلب صون مفاد الأحاديث الصحيحة من شوائب غريبة لم تثبت، بدل الاستسلام لها والاعتذار عنها.

والله تعالى أعلم،
وأسأله العفو عن الزلل
مازن موفق هاشم
كتب الأصل في رمضان 1441هـ/2020م
وتمّت المراجعة في رمضان 1445هـ/2024م